المنكرات ، لكي تضعنا امام المثقف العربي الذي قرر العودة الى وطنه بعد ان طال اغترابه واوغل بعيدا في تغربه ، ففي السطر الأول من المقدمة يطالعنا قرار شرابي بالعودة نهائيا الى الوطن العربي سنة ١٩٧٤ . وعندما اكتشف هذا المثقف العائد لخدمة وطنه « ان الشعب والوطن لا يأبهان به وبأحلامه ، وان الواقع يناقض الرؤيا . »(ص ٨) ، قرر من جديد الرجوع الى منفاه « كالجندي المهزوم » . ومما لا ريب فيه ان مذكرات الجمر والرماد هي محاولة يعمد شرابي من خلالها وعبرها الى مراجعة الماظي ومواكبة المسار الذي اجتازه وعيه الفكري والفلسفي والاجتماعي والقومي ــ الوطني :

« هذا الكتاب حصيلة تلك الفترة القلقة . بدأت في كتابته صيف ١٩٧٥ لاسجل فيه نهاية مرحلة من حياتي ظننتها انتهت . وبداية مرحلة جديدة ظننتها بدأت أو على وشك ان تبدأ . الا ان المرحلة الجديدة لم تتحقق والمرحلة السابقة ما زالت مستمرة »(ص ٩).

ان هذا التواصل بين المرحلتين السابقة واللاحقة يسهم الى حد ما في الاحساس المتفائل الذي يغمر شرابي ابان تقديمه للمذكرات ، فيضع حدا لتردده بين العودة من جديد الى الوطن او تمضية ما تبقى لي من العمر هنا في هذه البلاد الغريبة » ، مؤكدا عجزه عن التخلي عن وطنه : « سأعود يوما » وحين يستقل شرابي الطائرة في صيف العام ١٩٤٩ عائدا الى اميركا يطالعنا السطر الأخير من جمره ورماده بنغمة متشائمة تشوبها المرارة والخيبة ــ على غرار فقرات المقدمة التي اشرنا اليها . فهو يهمس لنفسه متمتما : « لقد نبذتني يا وطني ... لن ارجع اليك ... لن أرجع ابدا ... » (ص٢٢٨) .

وليس من قبيل المبالغة ان صاحب المذكرات يمارس ضربا من التعري الفكري على صعيد سيرة الوعي واللاوعي وفي مسار المفارقة الزمنية . فالقارىء مدعو الى متابعته من خلال الجمر والرماد في ايراده لذلك السيل المستمر والحشد الغفير من الاسماء والوجوه التي اكتشف الوعي ذاته من خلالها وتمرأى فيها ، فتحول الى وعي شقي واحيانا الى وعي منفصم . ومن الفقرات التي تسترعي الانتباه تلك التي يتحدث فيها شرابي عن رصد وعيه الذاتي لموت الآخرين لا سيما الاصدقاء (الفصل الثالث من الجمر والرماد . الفقرات ١٨ ، ١٩ ، ٢٠) فهو يقول : « لامس الموت حياتي في فترات مختلفة .. وكنت اشعر انه سيخطفني باكرا». فالمذكرات التي كتبها هشام شرابي لها نكهة خاصة ــ وان جاءت متأخرة ومجتزأة بعض الشيء . ولقد اشفقت احيانا على القارىء من سيل الاسماء والاشخاص والوجوه الذي لا ينقطع . كما فاجأتني كلمة الغلاف التي وقعها ادونيس : « نادرا ما قرات نتاجا عربيا حديثا هزني ، فتمنيت لو انني كنت صاحبه » . وما على الشاعر ادونيس الا ان يحقق امنيته ويتحفنا بكتاب يضم بين دفتيه مذكرات تنيرنا وتأسرنا ، دون ان تهزنا ، وتضعنا في الجو المماثل ولا تستفزنا كقراء . ولشد ما بلغت بي الدهشة والاستغراب عندما وجدت ان عبارة ادونيس التي اتخذتها الترجمة العربية لكتاب شرابي «المثقفون العرب والغرب»،(١٩٧١) جاءت بديلا لكلمة نيتشه التي تتصدر الغلاف الداخلي للنص الانكليزي الاصلي ، حيث استبعدت عبارة نيتشه «عليكم ان تكفروا امام ابنائكم عن ذنب تحدركم من آبائكم ، وبغير هذه الكفارة لن تنقذوا الماضي » (هكذا تكلم زارادشت : هذه هي الوصية الجديدة اعلق لوحها فوق رؤوسكم ــ « الوصايا القديمة والوصايا الجديدة»)، وحلت محلها وايقنت عندما صرت في الثلاثين ان حياتي قد قاربت على النهاية (١٩٥٧) . وفي الخامسة والثلاثين اعتقدت اعتقادا راسخا بان ما تبقى من عمري لا يتعدى السنوات (١٩٦٢) وتاكدت ان الموت لا مفر منه لما اصبحت في الاربعين ، في الحقبة التي توفي فيها كيركيغارد (٤٣) وسعاده (٤٥) وكامو (٤٧) . لكن الموت لم يأت ... وها هي الخمسينات اصبحت على الابواب (١٩٧٧) . اصبحت مؤمنا ان الموت قد غض الطرف عني » (ص ١٤٨) .

جملة ادونيس التالية : «ان اوروبا لم تعد ، بالنسبة لنا نحن هذه الشعوب « المتخلفة » ، « الجاهلة » ، « الفقيرة » اكثر من جيفة متمدنة » . نتوقف هنا تاركين للقارىء مجالا للتأمل والتروي قبل اصدار الحكم النقدي الموزون ودون اغفال الحيثيات التي رافقت تلك التحول الجذري البارز .